معرض الفنان

أحمد مرسي

AHMED MORSI

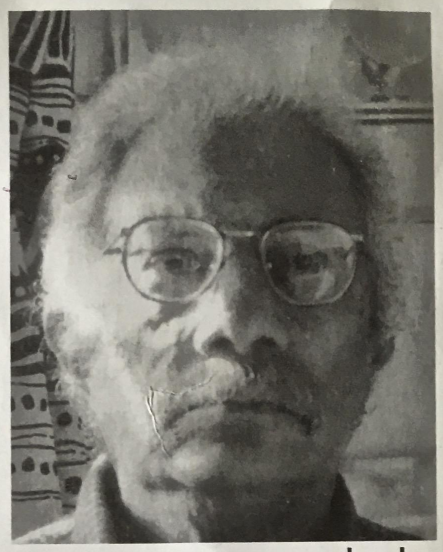

شاطئ زمن

أحمد مرسي

١ -كلنا غرباء. حتى بالنسبة لأنفسنا. بل لا سيما بالنسبة لأنفسنا. مع أننا نهوى أن نظن أننا اكتشفنا جوهر رغباتنا، والخوص الذي تُنسج منه أحلامنا. فنحن نختلق تفسيرات عظيمة أو حميمة قد تُفيد، إن كانت دقيقة، جيلا بأكمله: قصائد شعر تكون، عندما تتصيّد في الليل الدامس، بمثابة شبكة مضيئة، تظل تحوّم كجسر معلّق بين شفير التصور وشفير الواقع.

٢ -لم نقض سوى أربع سنوات جالسين وجها لوجه، يفصل بيننا مكتبان معدنيان ملتصقان بحكم وزنهما، هما طاولتان مدرسيتان صلبتان من الخمسينيات، تعودان إلى الوقت الذي تأسست فيه الأمم المتحدة. وهناك الطقس اليومي: التحيّات التي نتبادلها وكأننا محاسبان في شركة ملاحة شحنتها غامضة. لقد وُلدنا نحن الاثنين على ضفاف البحر: هو في الإسكندرية، وأنا في فيجو. ومن إسكندرية طفولته ومراهقته، المتسربلة بثوب أسطوري في رباعية لورانس داريل التي التهمتها في سنوات تكويني، لم يتخلف أي أثر. ولكن عندما يذرع شوارع مانهاتن القديمة، وبخاصة منطقة "الباوري" (*Bowery*)، مخلّفا قصائده ذهنيا أو راسما في شواطئ ذهنه القديم اسكتشات تغدو بعد ذلك لوحة، يقول إنه يشعر وكأنه يطوف عبر شوارع اسكندريته التي وُلد فيها. نحن نتشارك نفس المكان، وبعض العواطف الجياشة الحميمة.

٣ -المذاهب هي الإبر الموجودة في كلّابات الفراشات. فهي لا تؤكد سوى أنها كفت عن رفرفة أجنحتها. ونحن نستخدم المذاهب كبطاقات للخروج من هنا، لا لنجوس في تلافيف حياة وتلافيف ذاكرة. السوريالية. الرمزية. التعبيرية. لو كانت الروح المصرية موجودة، فمن الممكن قراءتها في لوحات أحمد مرسي. وعلى أية حال، هناك عملية تحوّل. لقد قالها يوما ما: إنها الصور التي تداعب خياله من الصحف والمجلات القديمة والحوائط والظلال والقطيعات والأسوار والأغصان. مشاهد طبيعية نحو المجهول. الحياة الحقيقية، الواقع الحقيقي، الروح الحقيقية. المقاربات، لأن الحقيقة أشبه بطبقة رفيعة من الزبد تخلّفها الأمواج عند انحسارها. جمال يتحدث عن نفسه، ثم ينطفىء. عالم التجارة وعالم التصوير الزيتي يتزاوجان في جميع الأوقات، ويفعلان ذلك حتى مع عنفوان فرس نبي معدني في مانهاتن هذه التي نهواها ونتقاسمها لأسباب متزامنة ومتباعدة قوامها صور وأصوات واهية، تؤكد ذاتها كلغة خيال ورغبة. أحمد لا يشي بسره ولا يشي بفنه لينال اعترافا. فهو لا يستطيع أن يفعل ذلك، دون أن يخلع قناعا هو في الحقيقة وجهه. إنه يرسم لأنه لا سبيل آخر، لأن عليه أن يرسم. التعبير عن عالم داخلي يعرفه بحكم زيارته له بضربات الفرشاة التي تخُط ظلا مميزا.

٤ -مع أنه يعيش في نيويورك منذ عقود، فإنه لم يهجر تماما حياته الماضية. أي، مدينته التي وُلد فيها. ولو كانت الإسكندرية موجودة فإنها تتنفس في ذاكرته. ولكنه لا يرسم ما كانت عليه: بل يرسم روحا، وجوا اندثر في بحار الزمن المعاصر الجيوسياسية والأخلاقية، قرن يضربنا بقبضته. لوحات جدارية، صفاء، صمت. رؤوس خيل، رؤوس متحجرة، أجساد لاجنسية، غياب الزمن، زمن سرمدي، زمن يرتد كالبحر قبالة شاطىء زمن أحمد مرسي. الشعر يشق طريقا واضحا، وليس أقل غموضا لهذا السبب، نحو بلورة اللوحة، والعكس صحيح: فاللوحات تشق طريقها نحو عقل الرسام من خلال الشعر الذي يتأمل به العالم وذلك الظل الملتبس الذي يخيّم فوقه. اللوحة تجسيد للروح، بينما الشعر يتوغل في صدى صوت الإنسان، ذلك الذي يترجم الفكر، أو على الأقل يحاول ذلك؛ لأن المنطق مصنوع من رمال متحركة. وهذا هو ما يجعلنا نقرأ في لوحات أحمد صورا لكلمات تعيد إلى الذاكرة فكرة تتكون لا يمكن أن تقال، ولن تُقال، إلا بهذه الطريقة، بدون كلمات، وبصمت مألوف ألفة مروعة. وكأنما ربط، من خلال ممر داخلي سري، الحجرة السرية لخدم فرعون بمقابر أسلاف خوان رولفو ورواية "بيدرو بارامو". لو لم أكن قد عرفت أن أحمد مرسي شاعر لكنت قد استسلمت لإغراء سهل نسبيا، إغراء القول بأنه يرسم قصائد، ولكن كان من شأن ذلك أن يكون بمثابة انزلاق إلى عملية تحط من قدر كلا السجلين، المترابطين هنا كشاطىء الضفتين اليسرى واليمنى للعقل: بدون كلمات، بجسده المتحول هنا إلى نوع من الدلتا ونوع من قصاصة ألبوم ترقد فيه الأخيلة والعواطف جنبا إلى جنب مع الصور التي تنبعث منها هي نفسها عواطف يصعب علينا أن نترجمها إلى عبارات. فهي تخاطب أرضا مأهولة بالذكريات التي يمكن أن نوجهها إلى - ونعثر عليها في - مصر، في الإسكندرية، تحت الرمال، في الهيروغليفية، في الهيرية، في البروفيل الصامت للشخوص التي تغرس البذور، أو تحبك بصنارة، أو ترسم، أو تكتب، ولكنها في الوقت ذاته تروي مرة أخرى بداية الرؤية، بداية طريقتها في الرؤية عندما تجعل السخونة الأفق يرتد ويظل وضوح الأشياء في حالة نصف مواراة.

٥ -عندما أتطلع إلى لوحات أحمد يرين عليّ الصمت، لا لأنني لا أستطيع أن أدلف إليها، بل لأنها تخاطبني بأشكال أعرفها، تصويرات لحلم حلمت به أشعر الآن أنه يخصني، وآت لي، مع أنني أفكر في ذلك القطار المضيء الذي يأتي من البحر نحو شاطئ حافل بشخوص عارية وصامتة ترمقني.

٦ -عندما أقرأ قصائد أحمد أبدأ في الترحال. لن أقول إنه كان ينتظرني في نيويورك لأنني لم أكن أعرف أنني سآتي إلى هنا لأقضي بضع سنوات حاسمة من حياتي، ولا إنه سيكون في حالة انتظار على الطرف الآخر من طاولة فولاذية في الأمم المتحدة، بينما تخاطب أصوات المندوبين قاعة من المرايا فى غرفتي الجمعية العامة ومجلس الأمن الكبيرتين. ولكن حقيقة الأمر هى أننا كنا منذ اللحظة الأولى بحاجة إلى كلمات كثيرة ليفهم كل منا الآخر، من خلال لغة ثالثة يتكلمها كل منا، ولكنها ليست لغتنا، وليست اللغة التي نتحدثها فى أحلامنا، ولكنها اللغة التي نتكلمها عندما نحاول وصف شكل الشاطىء الأول، والأقفال المعدنية للحوانيت القديمة التي تبيع أوعية الشمع وحبال أشرعة المراكب والتمور والذرة وطحين السمك والرنجة والبن والكسكس وسمك القد والبهارات والبكرات وريش الطيور والمداد ولفّات الورق والعراجين وزيت بذرة الكتان وأسلاك النحاس والشمع وأعواد الثقاب وحمص الشام والكتب والصحف والصابون والفلين والخيزران والإسبارتو وقناديل الزيت والدبابيس والمسامير والألوان الزيتية والسكاكين وعراجين الطلاء وحامض النتريك والبطاطس واللوز والحلوى والمكرونة والصمغ والمعاجم والأحذية.

٧ -وعندما أحاول ترجمة ما أشعر به وما أراه أقفز إلى عربة ترام خيالية تبارح طفولتي في ميناء فيجو دالفة إلى شوارع الإسكندرية المرصوفة بالحصباء. وأستطيع أن أتنسم مرة أخرى رائحة السمك العطن والسمك المحفوظ والخيش والوقود وطلاء الزيت التي كنت مغرما بها في طفولتي، وأسير وقت مغيب الشمس عبر أحواض بناء السفن والمستودعات ومطاعم العمال وحوانيت البقالة المغلقة.

٨ -إننا جميعا وحيدون، حتى لو تظاهرنا. وأحمد وأنا أيضا، مع أن من يتابعون حياتنا ويشاركوننا وجودنا وبعض عواطفنا الجياشة قد لا يظنون ذلك. وتسعفنا الكلمات لكي نلمس الضوء الذي يعلو شاطئا تضربه الرياح، والذي يبدو الآن، في لوحات أحمد، أنه تهاوى، متيحا لنا سماع نقرة بطريقة "مورس"، نقرة لها علاقة بالإسكندرية، وأنصت إليها مع ذلك وكأنني متواطىء معها. لأنني أرى من خلال النوافذ التي فتحها أحمد في صدره ما أحلم به، أرى شاطىء زمن ذا ساعات حائط، وكرات بلا مقابض، وأيدي ساكنة، وخيولا، وكائنات

لا جنس لها ترمقني وتسمح لنفسها بأن تُرمق، رؤوس خيول، كائنات ذات ساق زرقاء كبيرة كالأوتاد، ألوانا زرقاء داكنة آتية من الذاكرة والرغبة أكثر مما هي آتية من الواقع، اثنين يتعانقان ولا ندري ما إذا كان ذلك العناق أشبه بالعناق في الأحلام، رائقا كالهواء، ولكنهما يؤلماننا عند فتح أشرعة النوافذ للضوء. لأننا ندرك أننا نعانق الحقيقة، ولكن ذلك لا ينقذنا من الزمن ولا من الموت، مهما كان يبعث على الطمأنينة. فالعناق ينتهي، وكذلك حرارة اللحم التي تضطرم بجوارنا، أما نفس الشاطىء البارد فيبقى.

٩ -هذه ليست محاولة للتفسير. بل ربما كانت دعوة إلى التحديق في تلك الوجوه التي هي أقنعة، تبدو بلا عقل، وتراقب بصمت يجعلها مخيفة، ولكنها مع ذلك لا تخفيني. إنه لا يحب أن يتحدث عن لوحاته، التي لا تتحدث عن نفسها على وجه الدقة، ولكنها تستعين بالكلمات. وهذا هو ما يجعل المرء لا يريد أن يستسلم لإغراء الإيحاء بأنها تريد أن تقول ما تشاء أن تقوله أيا كان، وهو إغراء لا محل له، من ناحية أخرى، لأن تكوينها ليس المقصود منه أن يقول، بل أن يدعنا نرى من خلال مجال آخر ليس مجال الكلمات. ذلك لأنه قد قيل بالفعل أن أحمد يخط قصائد، ويكتبها كاملة في المفكرة الأثيرية الموجودة داخل ذهنه (شاطىء الزمن) أثناء تجواله عبر منطقة الباوري (*Bowery*)، وهو ممر نيويوركي يفضي إلى الإسكندرية، أو يُفضي إليها على الأقل بالنسبة له، وبالنسبة لي أيضا منذ أن سمح لي أن أشاركه هذا الممر الكائن بين منزله بالقرب من الأمم المتحدة ونيويورك التي تصمد أمام كل محاولة ترمي إلى تحويلها إلى شيء آخر، نشارة تاريخ، صدأ أحلام.

١٠ -إن عالمه يبدو محكما، لا يمكن اختراقه، محميا بشبكة مغزولة من الصمت والوحدة. ولكنه هناك، مع ذلك، بكل كثافته وبافتقاره إلى التأكيد، وبصراحته. فهو لا يسلط الضوء، ولا يصرخ، ولا يشير. بل هو يوارب بابا يُفضي إلى شاطىء الزمن ويدعو كل من يريد أن يدخل منه، أولئك الذين يجسرون على القراءة، تاركين وراءهم ضجيج وأصوات وأصداء أولئك الذين يختلقون العالم بضربات فأس وينسون أننا سنموت، وأنه في مواجهة كل ذلك المستقبل المفعم بالحيوية يوجد رجال مثل أحمد مرسي يعرفون كيف يعبّرون عن مقاطع لفظية صامتة، وأوتدة مدفونة في الرمال، وخيول تراقبنا، وعيون هى عيوننا، ورؤوس نهزها بسواعدنا حتى لا يخمد كل شيء عندما نغلق أعيننا ويأتي البحر ليضرب بمداده الرمادي هذا المكان الغريب المسمى الوجود.

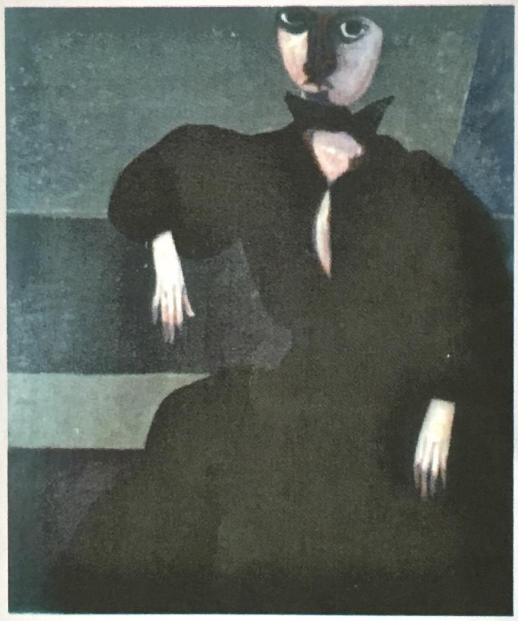

نيويورك، أكتوبر ٢٠٠٢

ألفونسو أرمادا (فيجو، إسبانيا، ١٩٥٨)

مراسل صحيفة (*ABC*) الإسبانية في نيويورك، وهو ناقد تشكيلي وشاعر وكاتب مسرحي.

ترجمت النص إلى اللغة العربية السيدة/ **أماني فهمي**.